كلية : الآداب

القسم او الفرع : اللغة العربية

المرحلة: الثالثة

أستاذ المادة : أ.م.د. نهاد فخري محمود

اسم المادة باللغة العربية : النقد القديم

اسم المادة باللغة الإنكليزية : Old Criticism

اسم المحاضرة الأولى باللغة العربية: النقد في عصر بني أُمية

اسم المحاضرة الأولى باللغة الإنكليزية: Criticism in the period of Umayyad state

مقرر الفصل الأول

النقد في عصر بني أُمية

إنَّ دراستنا للنقد في عصر بني أمية، يمكن أن نضعها في إطار البيئات الثلاث، إذ انمازت كلَّ بيئة بخصوصية نقدية بحسب القرب أو البعد من مركز السلطة، فضلاً عن طبيعة اهتمام النقاد. لذلك يمكننا أن نقسم البيئات النقدية في ظل الأمويين على النحو الآتي:

أولاً: بيئة الحجاز

تتمثل أهمية الحجاز في عصر صدر الإسلام بكونه خزانةً ضخمة للأموال التي جلبها القواد والأمراء، وتطورت هذه البيئة في عهد الأمويين فقامت فيها البيوت وانتشرت فيها الضِّياع وكثرت فيها الجواري، وظهر الغناء، فضلاً عن كون الحجاز مركزاً دينياً ليس لعرب الجزيرة فقط، بل للأجيال العربية الذين ولدوا في البلدان المفتوحة والأمصار الجديدة، إذ إنَّ آلافاً من الحجاج يردون إليها من عرب البلدان المفتوحة ومن الذين أسلموا من غير العرب .

كل ذلك انعكس على النقاد والشعراء الذين حاكوا هذه الطبيعة أو قل البيئة المترفة المطمئنة، الأمر الذي جعل الشعراء يميلون إلى القول العذب إلى الغزل، وذلك لحاجة الحجازيين إلى شعر يصور لهم عصرهم، ولعدم وجود ردود فعل مضادة لهذه التوجهات ازدهر هذا الشعر .

برزت في هذه البيئة النقدية شخصيتان نقديتان، هما ابن أبي عتيق، والسيدة سكينة بنت الحسين .

يحكى أنّ رجلاً أنشد شعراً للحارث بن خالد:

إنّي وما نَحرُوا غداةَ مِنًى ... عند الجِمار يؤودها العُقْلُ

لو بُدِّلت أعلى منازلهـــا ... سُفلاً وأصبح سُفلُها يَعلُو

فيكادُ يَعرِفها الخبيرُ بها فيردَّهُ الإقواءُ والمحـــــلُ

فقال له ابن أبي عتيق:(يا ابن أخي، استر على صاحبك، ولا تشاهد المحافل بمثل هذا، أما تطيَّر الحارث عليها حين قلب ربعها فجعل عاليَه سافِلَهُ " وما بقي إلا أن يسأل الله لها حجارةً من سجيل)

لذلك فضل أبياتاً لعمر بن أبي ربيعة على قول الحارث:

سائلاً الرَّبعَ بالبُليِّ وقُولا هِجتَ شوقاً لي الغداةَ طويلا

إنَّ ابن أبي عتيق يعكس ذوقه المترف، وعصره المرح السعيد ، لذا فهو ينظر من ذكر ما يؤذي ويذكر بالموت والدمار .

ويذكر المرزباني أنه: (أنشد كُثيِّر ابن أبي عتيق)

ولست براضٍ من خليل بنائلٍ قليلٍ ولا راضٍ له بقليل

فقال ابن أبي عتيق، هذا كلام مكافِئ، وليس بعاشق، القرشيان أصدق منك وأقنع، ابن أبي ربيعة، وابن قيس الرقيات ، قال عمر:

فعِدِي نائلاً وإن لم تُنِيلي ... إنّما يَنْفَعُ المحب الرجاءُ

وقال أيضًا :

ليتَ حَظِّي كَلَحْظَةِ العَينِ منها ... وكثِيرٌ منها القليلُ والمُهَنّا

وقال ابن قيس :

رقيّ بعمركم لا تهجرينا ... ومُنيّنا المنى ثم امطُلينا

عِدينا في غدٍ ما شئت إنّا ... نحبّ ولو مَطَلتِ الواعدينا

ويروي صاحب الأغاني أنَّه، شبب عمرُ بن أبي ربيعة بزينب بنت موسى من أبياته التي قالها:

لا تلوما في ال زينبَ إن الـ قلبَ رهنٌ بآلِ زينبَ عاني

فقال له ابن أبي عتيق:(أما قلبك فقد غُيِّب عنها، وأما لسانك فشاهد عليك)

أما السيدة سُكينة ، فقد استمدت النقد من روح القرآن وسنة النبي محمد "ﷺ". وقد حظيت المرأة في الإسلام بمكانة رفيعة تليق بها. إذ قال الرسول "ﷺ" ما أهان النساء الا لئيمٌ وما اكرمهنَّ الا كريم).

هذه القيمُ جميعها ترسخت في ذهن السيدة سكينة التي كانت تنقد الشعراء من وراء ستار او عن طريق جارية لها. فقد وقفت ضد الشعر المكشوف الذي يمتهن المرأة ويشهر بها، أو الذي خرج على قيم الإسلام وتعاليم دينه الحنيف .

فالمتأمل في آرائها يجد ذلك ماثلاً في تعليقاتها، يروي صاحب الموشح عن أحدهم من قوله " مررت بالمدينة فعجت إلى سكينة بنت الحسين لأسلم عليها، فألفيت على بابها الفرزدق، جرير، وكثير، وجميل، والناس مجتمعون عليهم. فخرجت جارية بيضاء، فقالت: أيكم الفرزدق؟ تقول مولاتي لك: أ أنت القائل:

هما دلَّتاني من ثَمانينَ قامةً كما انقضَّ بازٍ أقتمُ الريشِ كاسرُهُ

قال: نعم، قالت: (فما دعاك إلى إفشاء سرك وسرها، أفلا سترت على نفسك وعليها ؟).

في هذه اللمحة النقدية حاولت السيدة اخماد السلوك البدوي الذي تأصل في شعراء زمانها، والمتمثل بالتشهير بالمرأة وعدم المبالاة بها، ثم دخلت، وخرجت فقالت أيكم جرير؟ أ أنت القائل:

طرقتكَ صائدةُ القلوبِ وليس ذا حينَ الزيارةِ فارجعي بسلام

قال: نعم، قالت:(كيف جعلتها صائدةً لقلبك، حتى أناخت ببابك أفلا أخذت بيدها، ورحبت بها، وقلت فادخلي بسلام ! أنت رجل عفيف).

ثم دخلت وخرجت، فقالت أيكم كُثيِّر؟ أ أنت القائل:

أدمتِ لنا بالبخلِ منكِ ضريبةً فَليتَكِ ذو لونينِ يُعطي ويَمنعُ

قال: نعم، قالت:(ما جعلتها بخيلةً تُعرف بالبخل، ولا سخيةً تعرف بالسَّخاء).

ثم قالت: أيكم جميل؟ أ أنت القائل:

ألا ليتني أعمى أصمُّ تقودني بثينةُ لا يخفى عليَّ كلامُها

قال نعم، قالت: " أ فرضيت من نعيم الدنيا وزهرتها أن تكون أعمى أصمَّ إلا أنه لا يخفى عليك كلام بثينة ! ..."

من ينعم النظر في أحكام السيدة سكينة، يجدها قد انصرفت الى مضمون الشعر، لا إلى شكله، فأبيات الفرزدق صوَّرته فاحشاً فاجراً، وهذا مفسدٌ لشعر الشاعر، وبيت جرير عبر عن تناقض في موقف الشاعر مما أظهره مدَّعيًا لا عاشقاً حقيقياً، وأبيات كُثيِّر لم تحدد موقفاً واضحاً لصاحبته ، وبيت جميل أظهره يُضحي بالنَّفيس من دون أن يحصل على طائل .

يروي صاحب الاغاني عن الشعبي (أنَّ الفرزدق خرج حاجاً، فلما قضى حجَّهُ عَدَل الى المدينة ، فذهب الى السيدة سكينة فسلَّم عليها من وراء الحجاب، فقالت له يا فرزدق مَن أشعر الناس؟ قال: أنا، قالت: كذبت أشعر منك الذي يقول :

بِنَفسيَ مَنْ تجنُّبُهُ عزيزٌ عليَّ ومَنْ زيارتُهُ لِمامُ

ومَنْ أُمسي وأُصبحَ لا أراه ويَطرقُنِي إذا هَجَعَ النِّيامُ

فقال: واللهِ لو أذنتِ لأسمعتُكِ أحسنَ منه .. ثم عاد إليها في الغد، فكررت القول عليه، فقال: أنا، قالت: كذبت، صاحبك جرير أشعر منك عندما قال:

لولا الحياءُ لهاجني استعبارُ ولزرتُ قبرَكِ والحبيب يزارُ

ثم عاد في اليوم الثالث فكررت عليه القول، فقال: أنا، قالت: كذبت، صاحبك أشعر منك عندما قال:

إنَّ العيونَ التي في طرفها حورٌ قتلننا ثم لم يُحيينَ قتلانا

يصرعنَ ذا اللبِّ حتى لا حراك به وهنَّ أضعفُ خلقِ الله أركانا

ثانياً : بيئة الشام

يكاد يكون موقف الخليفة وولاته واحداً من الأدب والشعر، حين يتعلق الأمر لمخاطبة الطبقة الحاكمة الجديدة التي انتقلت من دور البداوة الى دور الحضارة ومن سكن البيوت المتواضعة من مكة أو الخيام في الصحراء إلى سكن القلاع والحصون والقصور .

فتحول البدوي البسيط الى حاكم وهذا يتطلب في الشعراء أن يغيروا من خطابهم لهذه الفئة الحاكمة على وفق ما يقتضيه الحال والمقام، إلا أن الشعراء الذين وقفوا بين أيدي آل أمية ظنوا أنَّ الدنيا لم تتغيَّر وأنَّ الزمان لم يتطور مما أوقع الشعراء في حرج في كثير من المواقف. من ذلك ما حدث بين جرير وبشر بن مروان عندما كلَّمه وكأنَّه يخاطب ابن عمٍّ له قائلاً:

قد كان حقُك أن تقولَ لبارقٍ يا آلَ بارقَ فيمَ سُبَّ جريرُ؟

فعلَّق بشر: " أما وجد ابنُ المراغة .. رسولاً غيري !"

وعلَّق الصولي: " وليس كذا يخاطب الامراء "

وكذلك عندما قال ليزيد بن عبدالملك:

هَذَا ابنُ عَمِّي فِي دِمَشْقَ خَلِيفةً ... لَو شِئْتُ سَاقَكُمُ إليَّ قَطِيناً

فعلَّق يزيد قائلاً: " أما ترون جهل جرير، يقول لي: ابن عمي، ثم يقول: لو شئت ساقكم، أما لو قال: لو شاء ساقَكم، لأصاب ولعلِّي كنت أفعل ".

ويقال إنَّ الوليد هو المعني بذلك، وأنَّه قال: أما والله لو قال: لو شاء ساقكم لفعلت، ولكنه: (لو شئت) فجعلني شرطياً

ويروى أنَّ عبد الملك بن مروان نعس مرةً في مجلسه، فقال للفرزدق وجرير والأخطل مَن وصف نعاساً بشعر وبمثل يصيب فيه، ويحسن التمثيل، فهذا الوصيفة له، فقال الفرزدق :

رماهُ الكرى في الرأسِ حتّى كأنَّه أميمُ جلاميدٍ تركنَ به وَقرا

فقال: شدختني ! ويلك يا فرزدق، فقال جرير:

رماه الكرى في الرأسِ حتى كانَّه يرى في سوادِ الليل قنُبرةً سقرا

فقال: ويلك تركتني مجنونًا، ثم قال الأخطل:

رماه الكرى في الرأسِ حتّى كأنّه نديمٌ تروّى بين ندمائهِ خمرا

قال أحسنت، خذ اليك الجارية.

وكان عبد الملك بن مروان من أوائل الذين اكدوا المدح بالفضائل النفسية والخلقية. ونفى قبول المدح الذي يعتمد على وصف المظهر والجمال، فعندما مدحه ابن قيس الرُّقيَّات:

يعتدلُ التاجُ فوق مفرقهِ على جبينٍ كأنَّه الذَّهبُ

فقال عبد الملك: تقول لمصعب :

إنَّما مصعبٌ شهابٌ من اللهِ تجلَّت عن وجهه الظلماءُ

وأما لي فتقول: على جبينٍ كأنَّه الذَّهبُ، وكأنّي من العجم.

وقد نبَّه عبدالملك الشعراء قائلاً: (يا معشر الشعراء تشبهوننا مرة بالأسد الأبخر، ومرةً بالجبل الأوعر، ومرةً بالبحر الأُجاج، ألا قلتم فينا كما قال أيمن بن خريم في بني هاشم:

نهارُكم مكابدةٌ وصومٌ ولَيْلُكُمُ صلاةٌ واقتراء !

وكذلك كان عبد الملك شديد الحساسية للكلمة، من ذلك لما أنشده الأخطل قوله :

" **خفَّ القطين فراحوا منك او بكروا** "

فقال عبد الملك: بل منك، وتطير من هذا القول، فعاد فقال:

فراحوا اليوم أو بكروا .

ولمعاوية بن أبي سفيان موقف صريح من الشعر، فهو القائل: (يجب على الرجل تأديب ولدِهِ ، والشعرُ أعلى مراتب الأدب)، ويروى أنَّه قال: (اجعلوا الشعر أكبر همكم، وأكثرَ دأبكم) ويروى أنَّ أبياتًا لعمرو بن الإطنابة كانت سببًا في ثباته وتحمله البلاء الذي مر به.

وفي الأخبار أنَّه(دخل الحارث بن نوفل الى معاوية، فقال: ما علّمت ابنك؟ قال: القرآن والفرائض. فقال: روِّه من فصيح الشعر، فإنه يُفتِّح العقل، ويُفصح المنطق، ويُطلق اللسان، ويُدل على المروءة والشجاعة).

ويروى أنَّه قال يوما لجلسائه :(أخبروني بأشجع بيت وصَفَ به رجلٌ قومَه ، فقال له روح بن زنباع: قول كعب بن مالك:

نَصِلُ السيوفَ إذا قَصُرْنَ بخَطْوِنا . . . قُدُماً ، ونَلحِقُها إذا لم تَلحقِ

فقال معاوية: صدقت.

ومن مواقفه النقدية تجاه الأغراض الشعرية، قوله لعبد الرحمن بن الحكم:(يا ابن أخي إنَّك شُهرت بالشعر فإياك والتشبيب بالنساء، فإنَّك تُعرِّ الشريفةَ في ثوبها، والعفيفة في نفسها، والهجاءَ فإنَّك لا تعدو أن تعادي كريمًا، أو تستثيرَ لئيمًا، ولكن افخر بمآثرِ قومِكَ، وقل من الأمثال ما توقّرُ به نفسك، وتُأدب به غيرك ... وإياك والمدح، فهو كسب الأنذال).

ويروى أنَّ الحجاج قال للفرزدق وجرير وبين يديه جارية، مَن مدحني منكما بشعر يوجز فيه ويحسن صفتي، فهذه الجارية له، فقال الفرزدق:

فمنَ يأمنُ الحجاجَ والطيرُ تتقي عقوبتَهُ إلا ضعيفُ العزائم

وقال جرير:

فَمنْ يأمن الحجاجَ، أما عقابُهُ فمرٌّ، وأما عهدهُ فوثيقُ

فقال الحجاج: "والطير تتقي عقوبته ، كلام لا خير فيه؛ لأن الطيرَ تتقي كلَّ شيء الثوب والصبي وغير ذلك، خذها يا جرير" .